غوغول
و
الأدب العربي الحديث

د. محمد يونس
كلية الآداب / جامعة بغداد

يحتل موضوع الأدب المقارن مكانة بارزة ضمن مجمل النشاط الأدبي، ويعتبر جانباً أساسياً في دراسة الأدب كعلم متطور. وتحظى العلاقات الأدبية باهتمام الباحثين سواء كانت ضمن أدب شعب معين أو بين آداب شعوب مختلفة. وتتطلب دراسة الجانب الأخير من الباحث الاستقصاء والتحليل ثم التوصل إلى النتائج، تحتم هذه العملية، بدورها، دراسة ظروف وحياة ذلك الشعب من خلال أدبه، كي يستطيع الباحث أن يستخلص أوجه التشابه والتباين مع أدب شعبه، أسباب تطور وازدهار ذلك الأدب للعمل على تطوير أدبه، وأخيراً فدراسة الأدب المقارن هي عبارة عن عملية مد الجسور بين الشعوب من خلال آدابها، خصوصاً إذا كنا نؤمن بأن الأدب العالمي، ككل، هو نتاج مشترك لكل شعوب العالم عبر قرون وأجيال كثيرة باعتباره جانباً من جوانب الحضارة العالمية التي تكونت نتيجة تجارب مختلف شعوب العالم ومساهماتها المتعددة الأشكال والصيغ.

يتميز الأدب الروسي في القرن التاسع عشر بجوانبه الفكرية الخاصة وبطابعه الإنساني الواضح، فإلى جانب عمق المحتوى الاجتماعي الذي يتناول فيه مشاكل المجتمع في تلك الحقبة من الزمن، يتسم الأدب

الروسي بالسمة الإنسانية التي يعالج فيها مشاكل الفرد ضمن أطر أبرز ما فيها هو شموليتها التي يمكن أن تنطبق على مجتمعات أخرى غير المجتمع الروسي. وهذا هو سر بروز الأدب الروسي وخلود أعلامه ومشاهيره.

الملاحظ أن الأدب الروسي قريب إلى نفس القارىء العربي، حيث إن التفاعل بين القارىء العربي ونتاجات الأدباء الروس يتم بشكل أسرع مما يحدث مع بقية الآداب الأخرى. والسبب هو أن الأدباء الروس في القرن التاسع عشر قد عكسوا مشاكل مجتمعهم التي هي أقرب إلى مشاكل مجتمعنا العربي حيث التسلط الإقطاعي، واستبداد السلطة الأوتوقراطية، والتخلف الاجتماعي. وهذه كلها من صفات المجتمع العربي حتى منتصف قرننا الحالي. وصور الأدباء الروس أيضاً نفسية الفرد الروسي التي هي أقرب إلى النفسية الشرقية منها إلى الغربية، حيث الإيمان والبساطة والطيبة وحتى السذاجة، هذه السمات قريبة من نفسية الإنسان العربي وخصوصاً الفلاح عندنا. أضف إلى ذلك العبقرية المبدعة لأدباء القرن التاسع عشر الروس وملكتهم الفنية الرائعة في تصوير الظواهر الاجتماعية والنفسية ومعالجتهم لأمراض الفرد والمجتمع. لذلك نجد أن هؤلاء الأدباء يحتلون موقعاً متميزاً في نفس القارىء العربي وتحتل مؤلفاتهم مراكز الصدارة لديه. والدليل على ذلك أن القارىء العربي قد تعرّف على الأعمال الأدبية لبوشكين ودوستويفسكي وتولستوي وغوركي وغيرهم من الأدباء الروس في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، أي قبل أن يتعرف على أعمال الأدباء الانكليز والفرنسيين رغم التأثير الثقافي والسياسي لهاتين الدولتين على المنطقة العربية بين منتصف القرنين الأخيرين من تاريخنا المعاصر.

يعتبر غوغول أحد أبرز أعلام الأدب الروسي في القرن التاسع عشر. وتشكل نتاجاته علامة مضيئة في مسار الأدب الروسي، فقد لعب دوراً أساسياً في تطور الأدب حيث أبدع الواقعية الانتقادية في الأدب

الروسي، مما أثر وبشكل ملموس على معظم من أعقبه من الأدباء الروس. اتسعت دائرة التأثير الإيجابي لغوغول فلم تقتصر على روسيا فقط، بل وشملت أدباء من مختلف الشعوب الأوروبية المتقدمة في مجال الرواية والقصة والمسرحية.

نحاول في بحثنا هذا أن نسلط بعض الضوء على غوغول من خلال ما نشر له وعليه باللغة العربية فقط، حيث كرسنا القسم الأول من البحث لمناقشة آراء النقاد والأدباء الغربيين المنشورة باللغة العربية والقسم الثاني لتبيان آراء النقاد العرب بهذا الأديب الكبير.

ملاحظة أخيرة نود التنويه عنها، وهي أن البعض يكتب اسم هذا الكاتب «جوجول» والبعض يكتبها «غوغول» وقد يتساءل القارىء عن سبب هذا الاختلاف. المعروف أن المتداول في مصر هو لفظة حرف (ج) كافاً مخففة، لذلك فإنهم يكتبون «جوجول» لكنهم يلفظون حرفي الجيم كافين مخففين فيأتي اللفظ صحيحاً، لكن الإملاء خطأ، ونعتقد أن «غوغول» هي الأصح باعتبارها أقرب إلى الكاف المخففة وهذا ما سار عليه معظم الباحثين في سوريا ولبنان والعراق.

* * *

كثيراً ما نقرأ في كتب النقاد الغربيين آراء محافظة عن الأدب الروسي تحاول التقليل من أهمية هذا الأدب من منطلقات فكرية رجعية، ولكن هناك من يحاول وبشكل غير موضوعي وبعيد كل البعد عن الحقيقة، أن يلصق ببعض الأدباء الروس ومنهم غوغول تهماً غريبة عنهم تماماً. من هؤلاء الكاتب الأمريكي الجنسية والروسي الأصل فلاديمير نابوكوف الذي يصف غوغول بعدم الاهتمام بمشاكل المجتمع ويعتبره رائداً للسريالية. يقول ستانلي هايمن في كتابه «النقد الأدبي ومدارسه الحديثة»: «حاول فلاديمير نابوكوف في دراسته العجيبة «نقولا غوغول» (١٩٤٤) أن يعيد تفسير جوجول الذي اشتهر عنه أنه كاتب اجتماعي

ساخر سهل القراءة، بطريقة جديدة فأكد أنه كاتب معقد جدّي لا يحفل بالمجتمع وأنه غير عقلاني، بل إنه يكاد يكون رائداً للسريالية»[1].

إن الموقف الفكري المتطرف لفلاديمير نابوكوف قد دفع حتى بالنقاد الغربيين المحافظين إلى عدم الاتفاق مع رأيه هذا. إذ كيف يمكن الاتفاق معه بأن كاتب «المعطف» و«المفتش العام» و«الأرواح الميتة» لا يحفل بالمجتمع، في الوقت الذي مزق فيه كل الأقنعة وكشف عن عورات المجتمع الإقطاعي القيصري في مؤلفاته تلك! ومن الخطأ أيضاً فهم قصة «الأنف» لغوغول على أنها سريالية المنحى، حيث أراد بها غوغول بشكل واضح جداً إدانة ظاهرة اجتماعية سلبية وهي اعتماد المظهر وليس الجوهر في تقييم الإنسان. إن آراء فلاديمير نابوكوف هي تشنجات فكرية أكثر من كونها نقداً أدبياً، ولسنتمع إلى آراء ناقد غربي آخر في هذا الصدد. يتحدث الباحث الايرلندي المعروف فرانك أوكونور في كتابه «الصوت المنفرد» عن غوغول فيقول: «حين نقرأ قصة «المعطف» الآن، معزولة عن سياقها التاريخي فإنها لا تبدو شديدة التأثير. وكل ما فعله جوجول في هذه القصة تحقق بكثرة منذ أيامه وتحقق على نحو أجود في بعض الأحيان، لكننا حين نقرؤها مرة أخرى في سياقها التاريخي موصدين أذهاننا بقدر ما نستطيع عن كل القصص التي استلهمت قصة المعطف ندرك أن تورجنيف لم يكن مبالغاً حين قال: «لقد أتينا جميعاً من تحت معطف غوغول»[2]. يريد فرانك أوكونور تأكيد أهمية غوغول وتأثيره على من أعقبه من الأدباء الروس وهذه حقيقة مؤكدة، لكننا لا نتفق مع فرضيته بقراءة العمل الأدبي بمعزل عن السياق التاريخي إذ إن الأدب هو مرآة الحياة، لذا يجب أن يدرس من خلال المرحلة التاريخية التي كتب

---

(١) ستانلي هايمن «النقد الأدبي ومدارسه الحديثة» ترجمة إحسان عباس ود. محمد يوسف نجم، بيروت سنة ١٩٥٨، ص ٦٣.

(٢) فرانك أوكونور «الصوت المنفرد» ترجمة د. محمود الربيعي، القاهرة ١٩٦٩، ص ١٠.

فيها وتفاعل معها، وإلا فإنه سيفقد قيمته الاجتماعية وأهميته التاريخية. علمًا بأن القول الوارد أعلاه ينسب إلى دوستويفسكي. يشير فرانك أوكونور إلى أهمية غوغول وتجديده في عالم الأدب حيث يؤكد أن عند قراءة قصة «المعطف» فإن الإنسان يدرك أنها لا تشبه ماقبلهافي عالم الأدب. إنها تستخدم الطريقة البلاغية القديمة التي تستعمل أسلوب «البطولة الساخرة» لكنها تستخدمها في خلق قالب جديد، لا هو هزلي ولا هو بطولي، لكنه شيء بين بين... شيء ربما تجاوز كليهما في النهاية. وهذه - على حد علمي - أول مرة يظهر فيها الرجل الصغير في القصص، الأمر الذي يحدد ما أعني بالقصة القصيرة أحسن ما تحدده أية مصطلحات قد استعملها فيما بعد. إن كل شيء في شخصية أكاكي أكاكيفيتش - من غرابة وظيفته - يبدو في حالة وسط، ومع هذا فإن تلك الغرابة قد تحولت - على نحو ما - على يد جوجول»(٣).

يشير فرانك أوكونور إلى أن تأثير غوغول لم يقتصر على الأدباء الروس الذين ظهروا بعده، بل تعداهم إلى أدباء آخرين من شعوب مختلفة فيقول: «ما على الإنسان إلا أن يقرأ هذه القطعة (قصة المعطف - م. ي) بعناية ليدرك أن عشرات القصص بقلم تورجنيف وموباسان ووتشيخوف وشيروود أندرسون وجيمس جويس لم يكن أبداً أن توجد بدونها»(٤).

إن العمق الإنساني لقصة «المعطف» وبراعة غوغول في التعبير عن مأساة الإنسان المضطهد، تدفع فرانك أوكونور إلى أن يشبه مصير بطل القصة بمصير المسيح فيقول: «الذي فعله جوجول بشجاعة وذكاء أنه جرد من النساخ الصغير مستخدماً أسلوب «البطولة الساخرة» شخصية أخرى تمثل المسيح المصلوب، حتى أنه ليملأنا الرعب حينما نضحك

---

(٣) المصدر السابق، ص ١١.

(٤) المصدر السابق، ص ١٣.

لموقف ما حين نتذكر الشبه بين هذه الشخصية وشخصية المسيح»[٥].

إن عبقرية غوغول الأدبية التي استطاعت أن تمزج بين الدمعة والبسمة عند تصوير الواقع هي مواصلة للأدب الإنساني الأصيل، الذي واصل تأثيره الإيجابي على مسيرة الأدب من بعده. في هذا المجال يشير الباحث أر. أم. البيريس قائلاً: «سهرات الضيعة (يقصد «أمسيات قرب قرية ديكانكا» م. ي) سنة ١٨٣٢ أو «المعطف» هي الحياة بكل بساطة، ممتزجة بالنقد والسخرية والرقة في أسلوب يشبه أسلوب ديكنز إلا أنه أقل إلحاحاً إلى أبعد حد، غير أن «النفوس الميتة» التي لم يتمها عام ١٨٤٢ - تمتاز بالأبعاد الروائية التي وجدناها في الدورات الكبيرة للعصر البلزاكي، كما تبشر، كذلك بالشفقة الإنسانية الكبيرة التي سنجدها في الدورات الكبيرة للمدرسة الطبيعية في العصر التالي، ومع ذلك فهذه العظمة لا تنفي البساطة ولا سيما السخرية، في مقدرة مضيئة على بعث النفوس تبشر بدستويفسكي وتشيخوف - ولندع جانباً تورغنيف الطيب الأكثر شحوباً إلى ما لا نهاية...»[٦].

يحاول أر. أم. البيريس أن يعطي القارىء صورة عن المجتمع الروسي الذي أبدع فيه غوغول نتاجاته الأدبية فيقول: «إن مطلع القرن التاسع عشر هو العصر الذي التجأت فيه السخرية والرقة إلى روسيا، حيث ظل تأثير القرن الثامن عشر أكبر مما كان في الغرب الذي سيطر عليه نابليون. فبينما ظل غوغول يعيش في عالم ذكي وساذج ما يزال محتفظاً بطابعه الروحي، السابق لتولستوي، مكون من النبلاء والأقنان. حاول ديكنز وهوغو وبلزاك أن ينقلوا إلى الملحمة عالم البرجوازية الفتي الجديد، الذي خلقه عصر الصناعة وعصر نابليون»[٧]. صحيح أن العصر

---

(٥) المصدر السابق، ص ١٣.

(٦) آر. أم. البيريس «تاريخ الرواية الحديثة» ترجمة جورج سالم. بيروت ١٩٦٧، ص ٤٧.

(٧) المصدر السابق، ص ٤٨.

الـذي أبدع فيه غوغول كان يحتفظ بطابعه الروحي المتميز وكان يتكون من السادة النبلاء والعبيد والأقنـان، ولكن فات الباحث أن يذكر أن غوغول قد تحسس بوادر دخول الرأسمالية إلى روسيـا، وأرّخ ذلك في روايته «الأرواح الميتة» بشخص بطلها تشيتشيكـوف الذي يـطمح إلى الإثراء من أقرب طريق بغض النظر عن الوسيلة التي يحقق بها طموحه، وهذه هي نفسية الرأسمالي التي لم يسبق غوغول في تصويرها أي أديب روسي قبله.

يتحدث أر. أم. البيريس عن قصة غوغول «تاراس بولبا» فيؤكد «أن الملحمة الشعرية الوطنية في روسيا كانت تكتب في تلك الفترة تحت تأثير الرومانتيكية وهي تقليد واع للفلكلور» وقد عبرت روسيا عن نفسها في هذه الفترة نفسها في رواية «تاراس بولبا» لغوغول(٨). من الممكن أن نصف أن نصف قصة «تاراس بولبا» بالرومانتيكية، ولكنها الرومانتيكية الثورية حيث مجد فيها غوغول بطولة الإنسان في الدفاع عن أرضه ووطنه ضد المحتل الأجنبي، وتضحيته بنفسه وبأغلى ما لديه وهو ابنه من أجل قضية شعبه.

يتعامل بعض مؤرخي الأدب الغربيين مع الأدب الروسي تعاملاً لا يقف أحياناً على القاعدة العلمية بل يخضع لمنطلقاتهم الفكرية دون إسناده بالحجة والدليل، فالباحثة الفرنسية مارسيل أهرار في كتابها «تأريخ الأدب الروسي» تختصر حياة غوغول بعدد قليل من الجمل وتقول: «وهو مؤمن بل متصوف، وسبق له أن كتب إلى والدته بأن الله قد اختاره لأمر جلل. فلما عرضت عليه إحدى الوظائف البسيطة لم يرض بها، وحلم بأن يصبح ممثلاً..»(٩) يفهم القارىء من حـديث مارسيـل أهرار أن

---

(٨) المصدر السابق، ص ٤٨.

(٩) مارسيل أهرار «تاريخ الأدب الروسي»، منشورات عويدات. بيروت ١٩٥٧، ص ٦٠.

غوغول كان متصوفاً منذ البداية في حين أن جميع الوثائق التاريخية تؤكد أن الأزمة النفسية التي حلت به وحولته إلى متصوف قد ظهرت لديه بعد صدور رواية «الأرواح الميتة»، أي في الفترة المتأخرة من حياته. كذلك تبتعد مارسيل أهرار عن الحقيقة بادعائها أن غوغول قد رفض وظيفة بسيطة عرضت عليه، في حين أنه قد عانى الفقر والجوع في بداية حياته في مدينة بيتربورغ وسدت في وجهه الأبواب، ولم ينقذه إلا تدخل قريبه الوزير المتقاعد تورشينسكي الذي ساعده في الحصول على وظيفة لا يكاد مرتبها يسد رمقه وقبلها شاكراً. كان غوغول يحلم فعلاً بالعمل كممثل وتقدم إلى مسرح الكسندرينسكي لكنه لم يقبل فيه.

تقول مارسيل أهرار: «في تاراس بولبا حديث ممتع عن بطولة أوكرانيا الماضية في صفحات رومانطيقية، غير صحيحة تماماً من الوجهة التاريخية، إلا أنها حية ملونة فاتنة في أوصاف السهول والبراري الزاهرة»(١٠). تحتاج هذه النقطة إلى التوقف عندها. وبالذات مسألة كون هذه القصة غير صحيحة من الناحية التاريخية، فهل تريد مارسيل أهرار من الأديب أن يسجل سطور التاريخ بحذافيرها؟ في هذه الحالة تنتفي عنه صفة الأديب ويستحق لقب المؤرخ. والأديب عندما يتناول موضوعاً تاريخياً معيناً فإنه لا يقيد نفسه بأصفاد المؤرخ، بل يسمح لنفسه بحرية تصوير الحاضر من خلال الماضي. وهذا ما فعله غوغول عندما كتب «تاراس بولبا» حيث أجج في نفس القارىء آنذاك الروح الوطنية والانتفاض ضد الظلم والقهر وأكد سمو التفاني من أجل الشعب والموت في سبيل الوطن، وهذا هو واجب الأديب في مجال الاستفادة من دروس وعبر الماضي.

عند حديث مارسيل أهرار عن قصة «المعطف» تقول: «وهذه حكاية بسيطة محزنة لمستخدم حقير في مكتب أحرز معطفاً جديداً به

---

(١٠) المصدر السابق، ص ٦١.

اقتصاد طويل فسرق منه أول مساء، ونهاية القصة ليست ذات شان يدكر بالقياس إلى الصفحات المكتوبة عن الحياة اليومية لهذا العجوز المسكين. . .»[١١].

لا يمكن الاتفاق مع الفقرة الأخيرة من الكلام للباحثة الفرنسية، حيث إن نهاية القصة هي الخلاصة التي أراد غوغول أن يعرضها على الناس ويبين لهم كيف أن المجتمع الطبقي لا يسمح للإنسان الفقير بتحقيق حتى أحلامه البسيطة.

يحاول بعض نقاد الأدب البرجوازي فرض مظلة الدين على نتاجات غوغول بالقوة وأن يصنعوا منه نبياً رغم أنفه، وهم يرمون من ذلك إخضاع كل أعمال غوغول للمعايير الميتافيزيقية كي يتسنى لهم تجريدها من محتواها التقدمي والتفلسف بها وفق مفاهيمهم الطبقية الضيقة.

كتبت مارسيل أهرار: «في سنة ١٨٤٦ ظهرت مختارات من مراسلاتي مع أصدقائي فسببت فضيحة حول كشف عقيدة غوغول الحقيقية، المحافظ والمتصوف، ولهجة «النبوة» التي يخاطب روسيا داعياً إياها إلى الانتعاش وإلى مساعدته هو نفسه على الانتعاش. وبعد رحلة لى الديار المقدسة حيث كان يأمل هبوط الوحي عليه فلم يشعر إلا «بجفاف قلبه». قرر رغبة الرجوع إلى روسيا ليمعن النظر فيها ويجدد رسمها»[١٢]. إن كتاب غوغول «مختارات من مراسلات الأصدقاء» قد كشف فعلاً عن الأزمة النفسية التي عاشها الأديب في أخريات أيامه،وعبر فيها عن آرائه الرجعية التي جاءت نتيجة الحيرة التي وقع فيها غوغول نفسه بين واقع روسيا العبودية والتخلف والظلم،وبين التطور البرجوازي

---

(١١) المصدر السابق، ص ٦١ - ٦٢.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٦٥.

العاصف الذي كانت تعيشه أوروبا آنذاك، فصور حياة الذل والانسحاق التي كان يحياها الفلاح الروسي وبيّن حياة العمل والبناء والتقدم في أوروبا في تلك الفترة. لم يكن يمتلك غوغول الخلفية الفكرية الثورية التي تستطيع تفسير الواقع وفق المنظور الاقتصادي ـ الاجتماعي الواعي، مما سبب له ذلك القلق النفسي والفكري الذي تتوج بالتشاؤم والدعوة إلى «إصلاح الذات» التي تؤدي إلى «إصلاح المجتمع» واتجه نحو التصوف ثم العزلة والموت. أما مسألة «الوحي» و«النبوة» وغيرها من المصطلحات، فقد ألصقها النقد البرجوازي الرجعي بهذا الأديب الكبير لتشويه مواقفه التقدمية في «المعطف» و«المفتش العام» و«الأرواح الميتة» وغيرها من النتاجات الرائعة التي هزت المجتمع القيصري في حينه. وهذا ما دفع الناقد الكبير بيلينسكي إلى توجيه رسالته الشديدة اللهجة إلى غوغول يطالبه فيها بالتبرؤ من «مختارات من مراسلات الأصدقاء» والعودة إلى صفوف الديمقراطيين الثوريين.

يعتبر بعض النقاد الغربيين «الأرواح الميتة» مجرد رواية هزلية ساخرة، والبعض الآخر يعتبرها «تصوير حساس للحقيقة الروسية» ولا نريد هنا مناقشة النظرة السطحية للفئة الأولى أو نصف الحقيقة لدى الفئة الثانية من هؤلاء النقاد، لكنهم جميعاً يتناسون ما هدف إليه غوغول من روايته تلك وهو تلمس لحظة الانعطاف التاريخي في المجتمع الروسي ـ بداية ظهور الرأسمالية في روسيا ـ حيث جسد في شخصية بطل الرواية تشيتشيكوف نفسية إنسان المجتمع الرأسمالي التي تختلف تمام الاختلاف عن نفسية إنسان المجتمع الإقطاعي، إضافة إلى فضحه مساوىء المجتمع الروسي في تلك المرحلة.

يصف يانكو لافرين، في كتابه «تعريف بالرواية الروسية» واقعية غوغول بالحقد فيقول: «يطل من خلف فكاهته نفور رومانسي من الإنسان والحياة. وقد أبرز، بصفة أخص كل ما يبعث على الضحك في

الإنسان»[١٣]. إن موقع يانكو لافرين الفكري معروف للجميع إذ يقف في صف صاحبه فلاديمير نابوكوف، لكننا نتساءل: هل أن تصوير الواقع وتجسيد الحقيقة بشكل صادق هو حقد؟ وهل أن السخرية من العقلية الإقطاعية المتخلفة وفضح النظام القيصري الرجعي هو نفور من الإنسان والحياة؟ لا نعتقد أن هناك إنساناً موضوعياً يتفق مع وجهة نظر يانكو لافرين، إلا إذا كان على شاكلته. إن حب غوغول لوطنه وشعبه هو الذي دفعه إلى تصوير سلبيات الواقع بهذه المرارة، كي تتفتح أذهان الناس ويعملوا على تغيير ذلك الواقع المتخلف. نعتقد أن هذا ما قصد إليه غوغول، وكما هو معروف فهذا هو دور الأدب وهذا هو واجب الأديب في معركة التغيير نحو الأفضل.

وكذلك يتبين موقف يانكو لافرين غير الموضوعي من خلال حكمه على قصة «الأنف» لغوغول حيث يقول: «وقصة الأنف ـ من الناحية الأخرى ـ هذر متعمد. وهي تتدرج كحلم مضحك: شاب متحذلق مفتون، يفتش عن أنفه الضائع الذي ينتحل لنفسه وجوداً مستقلاً ويصادف الشاب في مهمته هذه كل ألوان المخاطرات الغريبة المضحكة. ولا بد من أن يكون جوجول قد استوحى القصة من عقد نفسية كامنة فيه، يدخل تعريفها في التحليل النفسي أكثر مما يدخل في النقد الأدبي»[١٤].

إن قصة «الأنف» ليست هذراً متعمداً بل لوحة إنسانية تؤكد على أهمية الجوهر في الإنسان. فبطل القصة إنسان يتمتع بموقع معين بين الناس ويتميز بصفات معينة. يستيقظ ذات يوم وقد فقد أنفه فينفر منه الناس ويرفضه المجتمع. لقد بقي هذا الإنسان بنفس الصفات ولم يتغير

---

(١٣) يانكو لافرين «تعريف بالرواية الروسية» ترجمة مجد الدين حفني ناصف، القاهرة ١٩٦٢، ص ٤٠ ـ ٤٢.

(١٤) المصدر السابق، ص ٤٥.

بداخله شيء سوى أنه فقد أنفه فصار شكله قبيحاً ثم يعود إليه أنفه فجأة ويعود إلى نفس موقعه في المجتمع. هنا يؤكد غوغول على أن المهم هو جوهر الإنسان وليس مظهره وهو بذلك يدين إحدى صفات المجتمع الرأسمالي القائم على المظاهر الكاذبة.

كما أكدنا سابقاً على أن غوغول قد أرخ الرأسمالية في روسيا في منتصف القرن التاسع عشر في شخصية تشيتشيكوف في رواية «الأرواح الميتة». والمعروف أن النقاد البرجوازيين لا يتفقون مع وجهة النظر هذه، لكنهم يقعون في تناقض في هذه النقطة بالذات. ويقول يانكو لافرين: «تنتقل شخصية تشيتشيكوف كأنه دون كيشوت زماننا الساعي وراء جمع المال»(١٥). ورغم أن التشبيه غير موفق لسمو ونقاء دون كيشوت ووضاعة تشيتشيكوف، ولكن هل هناك من صفة أكثر دلالة على نفسية الرأسمالي الجشع من السعي وراء جمع المال بشتى الطرق وبغض النظر عن الوسيلة؟ نعتقد أن كلمة يانكو لافرين أعلاه هي دليل واضح على ما أكدناه آنفاً.

المعلوم أن مسار النثر في الأدب الروسي قد تبلور وبرز في أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر على يد غوغول بعد أن كان الشعر يتبوأ المرتبة الأولى زمن بوشكين وليرمانتوف. كذلك اتفقت الآراء على التأثير الكبير لنتاجات غوغول على كل من أعقبه من الأدباء الروس في القرن التاسع عشر ابتداء بتورغينيف ومروراً بدستويفسكي وسالتيكوف ـ شيدرين وتولستوي وانتهاء بتشيخوف، باعتبار أن غوغول هو الذي طور الاتجاه الواقعي في الأدب الروسي إلى الواقعية الانتقادية التي كان رائدها الأول ومؤسسها في روسيا. لكن البعض من النقاد البرجوازيين يكابر يائساً ليدفع قدر المستطاع صفة الواقعية عن أدب غوغول بعبارات مزوقة تارة ومبهمة تارة أخرى دون إعطاء الدليل على ذلك. يقول يانكو

---

(١٥) المصدر نفسه، ص ٤٩.

لافرين: «لقد أخطأ بيلينسكي في فهم منهج جوجول، زاعمًا أنه واقعية بحتة فجهر بأن هذه القصة (يقصد رواية «الأرواح الميتة» م. ي) مع قصة «المعطف» هي حجر الزاوية في «المدرسة الطبيعية» للأدب الروائي الذي بدأ يتطور في العقد الخامس. ومهما يكن من أمر فنحن نعرف أن واقعية جوجول نشأت عن الاستفزاز الذي تدفعه إليه رومانسيته، لكي يثأر من الحياة المأمولة التي تقاصرت همته دون السمو إليها»(١٦).

وتعقيباً على هذه الكلمة نقول: إن بيلينسكي هو خير من فهم واقعية غوغول، وإليه يعود الفضل الأكبر في تحديد مسار الواقعية الروسية في النصف الأول من القرن التاسع وتوجيهها الوجهة الصحيحة وبالذات فيما يخص غوغول. لذلك نجد رسالة بيلينسكي إلى غوغول، بعد التحول الفكري الذي طرأ على الأخير في كتابه «مختارات من مراسلات الأصدقاء» تنضح أسفاً ومرارةً لهذا التحول وتطالب غوغول بالعودة إلى موقعه السابق في كشفه عن واقع روسيا العبودية آنذاك،وفضحه للنظام القيصري وتمزيقه لكل أقنعة الطبقة الإقطاعية المتخلفة بكل غبائها وقسوتها.

إن كانت هناك علاقة بين غوغول والرومانسية فهي علاقة غير متينة، رافقته لفترة وجيزة وذلك في بداية حياته الأدبية فقط. ولم تكن تلك الفترة رومانسية بحتة، حيث زاوج فيها بين الرومانسية والواقعية في «أمسيات قرب قرية ديكانكا» (٣١ ـ ١٨٣٢) مستلهمًا الحكايات الشعبية ليصور من خلالها الواقع القائم آنذاك. ثم انتقل بعد ذلك إلى الواقعية الانتقادية التي كشف فيها عن حقيقة المجتمع الروسي القيصري بالصورة الدامغة والسخرية القاتلة،التي أيقظت جيلاً ودفعت أجيالاً من الأدباء والنقاد والمثقفين إلى محاربة التعسف والاستغلال. كذلك لم تكشف المرحلة الأخيرة من حياة غوغول عن رومانسية تذكر حيث ظهر له فيها

---

(١٦) المصدر نفسه، ص ٥٠.

كتاب واحد هو «مختارات من مراسلات الأصدقاء» الذي عكس فيه أزمته النفسية إلى جانب آرائه الرجعية الطارئة.

بديهة معروفة أن الموقع الطبقي للإنسان هو الذي يحدد موقفه الفكري من مختلف جوانب الحياة بما فيها الفن والأدب. ويتضح هذا في المناهج النقدية لمؤلفات العديد من الكتاب الغربيين المترجمة إلى اللغة العربية والتي ناقشناها آنفاً. إلى جانب ذلك نجد أن المكتبة العربية تضم ترجمات لمؤلفات نقاد تقدميين، يتميزون بمواقف نقدية موضوعية تلتزم جانب الجماهير وتتناقض والفكر الرأسمالي.

تناول جورج لوكاتش في كتابه «دراسات في الواقعية الأوروبية» جوانب من الأدب الروسي بالبحث والتحليل، حيث دحض فيه آراء بعض المنظرين البرجوازيين القائلة بأن أدب غوغول هو تصوير فوتوغرافي لا يرقى إلى منزلة الأدب حيث يقول: «ولا حاجة بنا إلى القول إن واقعية جوجول ليست تصويراً فوتوغرافياً طبيعياً للتفاصيل الصغيرة في الحياة اليومية، ولكنها عرض فني مركز للملامح البارزة في الواقع الاجتماعي»(١٧).

يتحدث لوكاتش كذلك عن دور بيلينسكي في الأدب الروسي بشكل عام وعن غوغول بصورة خاصة فيقول: «لكن بيلينسكي كان يدرك أيضاً أثناء حياة بوشكين، أن مرحلة جديدة قد بدأت في الأدب الروسي، مرحلة الواقعية الحديثة، مرحلة جوجول...» ويضيف قائلاً: «لقد رأى بيلينسكي أن بزوغ عصر جوجول، والصراع من أجل انتصار الواقعية الجوجولية، يتفق مع النمو المتزايد للصراع الثوري الديمقراطي ضد الحكم المطلق والإقطاع»(١٨).

---

(١٧) جورج لوكاتش «دراسات في الواقعية الأوروبية» ترجمة أمير اسكندر، القاهرة ١٩٧٢، ص ١٣٣.

(١٨) المصدر السابق، ص ١٣٢.

يتبين للقارىء الفرق الواضح بين آراء النقاد البرجوازيين التي تمليها عليهم مواقعهم الطبقية، وبين النقاد التقدميين الذين يتوصلون إلى آرائهم من منظور مصلحة الجماهير. يتحدث بوريس بورسوف في كتابه «الواقعية اليوم وأبداً» عن عظمة غوغول وتفرده في مجال الأدب فيقول: «وعلى أية حال، لم يكن هناك، في أي مكان، عالم يتطابق مع عالم غوغول الذي خلقه في «النفوس الميتة». إن أبطال غوغول، بأشكالهم المباشرة، لم يكونوا موجودين ضمن الأحياء آنذاك وهم لا يوجدون ضمن الأحياء اليوم. ومع هذا فهم موجودون في كل مكان ودائمًا»(١٩). إن تعبير بورسوف هو أحد أجمل وأدق تعبير عن براعة غوغول في تصويره للشخوص، وعبقريته في اختيار الموضوع المتجدد مع الحياة وهذا سر خلوده.

* * *

كان غوغول من المطلعين على الحضارات القديمة ومن بينها الحضارة العربية وهذا ما دفع جامعة بيتربورغ إلى الاستعانة به لتدريس مادة التاريخ فيها. وكان هذا التكليف دافعاً قوياً لغوغول على دراسة هذه المادة والتعمق بها. كان شديد الإعجاب بالتاريخ العربي والأدب العربي حيث تلمس ذلك من خلال بعض ما كتب من أعمال أدبية. ومن أبرز ما كتب في هذا المجال مقالته الشهيرة عن الخليفة العباسي المأمون. يبدأ غوغول مقالته بالإشادة بالدولة العباسية المترامية الأطراف والمزدهرة الجوانب ويشيد بالخليفة هارون الرشيد كسياسي وإداري بارع. ثم يبدأ الحديث عن المأمون قائلاً: «على هذا النحو استلم الدولة المأمون، وهو الحاكم الذي وصفته القسطنطينية بنصير العلم الكريم،

---

(١٩) بوريس بورسوف، «الواقعية اليوم وأبداً»، منشورات وزارة الإعلام، بغداد ١٩٧٤، ص ٤٢.

والذي أدرج التاريخ اسمه ضمن الأخيار من أبناء الجنس البشري، والذي عزم على تحويل دولة السياسة إلى دولة الأدب. كان يتصف بالقدرة الحيوية على الدراسة الدؤوبة. وقد تميزت طباعه بالنبل وكان شعاره يتجسد بالبحث عن الحقيقة. عشق العلم وكان عشقاً بلا مقابل، فقد أحب العلم من أجل العلم دون أن يفكر بهدفه وتطبيقاته، وأخلص له بولـه عظيم»[٢٠].

ويتحدث غوغول عن العرب بإعجاب فيقول: «إن هذا الشعب الرائع لم يكن يسير بخطى نحو تطوره، وإنما يطير إليه طيراناً. ولقد انفجرت عبقريته فجأة في الحرب والتجارة والفن والاختراع وفي شعر الشرق المترف. إن عفويته التي لا يعرف تاريخ البشرية حتى الآن مثيلاً لها انفجرت بغنى وسطوع وغرابة وأصالة لا يشك بها»[٢١].

ورغم أن الأدب الروسي لم يدرسه الباحثون في البلاد العربية بشكل واسع دقيق، ورغم أن معظم المصادر الغربية المترجمة إلى اللغة العربية تتناول هذا الأدب بصورة متحيزة في أغلب الأحيان، لكننا نلمس أن النقـاد العرب ينـظرون إلى الأدب الروسي نـظرة احتـرام، وحتى المتأثرين منهم بالفكر الرأسمالي لا نجد لديهم تلك النظرة اللاموضوعية، بل يتجنبون الخوض في المسائل الفكرية لهذا الأدب ويقتصرون على تناول مسائل سطحية أو استعراضية، لكن الجميع يؤكدون المسحة الواقعية المتميزة للأدباء الكلاسيكيين الروس. أما النقاد والأدباء العرب الذين اتخذوا الواقعية الاشتراكية طريقاً لحياتهم الأدبية فنجد لديهم التحليل الموضوعي إلى جانب التقدير والإكبار. وطبيعي أن نجد عند البعض من هؤلاء بعض الهنات والتجاوزات وذلك يرجع إلى ثقافة الناقد ومدى استيعابه لذلك الأدب.

---

(٢٠) مجلة «آفاق عربية»، العدد ٩، بغداد ١٩٧٧، ص ١٥٢.

(٢١) المصدر السابق، ص ١٥٣.

في محاضرة للدكتور محمد شكري عياد ألقاها في الموسم الثقافي لجامعة القاهرة «فرع الخرطوم» سنة ١٩٥٧ تم نشرها ضمن كتابه «الأدب في عالم متغير»، أكد أن فن القصة القصيرة فن عربي قديم يتمثل في مقامات بديع الزمان الهمداني والحريري اللذين خلقا نموذجاً إنسانياً خالداً وهو نموذج الأفّاق الذكي. وقد أخذ الاسبان عن العرب هذا النموذج الذي عرف بـ «قصص الصعاليك» ومنه انتقل إلى سائر الآداب الأوروبية. كذلك يقول الدكتور عياد: «بحسبي أن أذكر من النماذج الحديثة لهذا الأدب مسرحية «المفتش العام» للكاتب الروسي الشهير جوجول، حيث يعرض ذلك النموذج الإنساني، نموذج الأفّاق الذكي...»[٢٢].

ويؤكد الأستاذ الباحث أوجه التشابه بين بطل غوغول وبين بطل مقامات الحريري وبين نقد غوغول ونقد الحريري للظواهر الاجتماعية حيث يقول: «فمفتش جوجول» العام يذكرنا بأبي زيد السروجي بطل المقامات الحريرية، ونقد غوغول الرائع لمجتمعه يذكرنا بنقد الحريري»[٢٣].

هذه المقارنة التي يطرحها الدكتور محمد شكري عياد لها ما يبررها من حيث الشكل والمحتوى حيث ان هناك بعض أوجه الشبه، لكن المسألة التي تهمنا هي هل اطلع غوغول على مقامات الهمداني والحريري؟ المعروف أن غوغول لم يعرف اللغة العربية لكنه اطلع على الحضارة العربية ودرس التاريخ العربي جيداً،واحتمال تعرفه على مقامات الهمداني والحريري عن طريق لغات أخرى وارد وكبير الاحتمال.

خصص الباحث السوري الأستاذ جورج سالم فصلاً بعنوان «حول قصة المعطف لغوغول» في كتابه الموسوم «دراسات في الأدب». نلمس في

---

(٢٢) د. محمد شكري عياد «الأدب في عالم متغير» القاهرة ١٩٧١، ص ٤١.

(٢٣) المصدر السابق، ص ٤٢.

هذا الفصل إعجاب الباحث بهذا الأديب وتثمينه العالي لقصة «المعطف» حيث يستهل مقالته قائلاً: «كتب غوغول خلال حياته القصيرة عدداً من القصص والروايات والمسرحيات. إلا أن قصة «المعطف» تحتل المكانة الأولى بين إنتاجه، رغم صغرها ويسرها، وتبرز بين آثاره عملاً فنياً خالداً، فيه الواقعية بكل عمقها ودقتها، والروح الساخرة التي عرف بها غوغول، والخيال العجيب، والألم الناعم المرهف والكآبة المتشائمة، والنزعة الإنسانية التي تتم روائع الآثار الإنسانية»(٢٤).

يستعرض الأستاذ جورج سالم قصة «المعطف» استعراضاً موضوعياً جميلاً، مصحوباً بتعليقات مقنعة تعكس الجوهر الإنساني والمحتوى الواقعي للقصة بوضوح أمام القارىء. والجدير بالملاحظة أن الأستاذ جورج سالم يؤكد على أن المعطف نفسه يلعب الدور الأول في القصة حيث استطاع غوغول أن يجعل للمعطف كياناً خاصاً متميزاً بجانب شخصيات القصة: فيشهد القارىء مولد المعطف ومراحل تكوينه ثم نهايته، كتب جورج سالم: «إلى جانب هذه الشخصيات لا بد أن نذكر المعطف نفسه، فقد لعب الدور الأول في الرواية (كذا م. ي) كلها ولقد تحدث عنه البطل ما شاء أن يتحدث حتى غدا كياناً قائماً بذاته، حوله يدور الأشخاص وفيه تستقطب حوادث القصة. فنحن نشهد مولده ونتتبع في القصة مراحل تكوينه، ونرى كيف جهز وتم، ثم نشهد نهايته بين أيدي اللصوص»(٢٥).

إن هذه الملاحظة الذكية للباحث العربي تفرض نفسها فعلاً حيث إن المعطف قد برز بين باقي شخصيات القصة بالفعل ويكاد أن يكون محورها. ليس هذا فحسب بل ويقارن جورج سالم بين شبح معطف غوغول وشبح الملك في مسرحية شكسبير «هاملت» فيقول: «إن غوغول

---

(٢٤) جورج سالم «دراسات في الأدب» حلب ١٩٧٠، ص ١٢٩.

(٢٥) المصدر السابق، ص ١٣٧.

في القسم الثاني من القصة يلج عالماً جديداً ويخطو بقصته الخطوة الأخيرة نحو الجدة والطرافة والخيال المبدع العجيب، إن هذا الشبح ليذكرنا بشبح الملك في رواية هاملت، لقد مات الملك مقتولاً كما مات أكاكي غماً وكآبة، فظهر شبح الملك في القصر يسأل عن ابنه ليكلفه بالثأر من أخيه الذي اغتاله، وظهر شبح أكاكي أكاكيفيتش في شارع بطرسبرج يثأر لنفسه من الناس جميعاً، من كل إنسان له معطف، دون إيثار طبقة على أخرى من الناس. . .»(٢٦).

يؤكد جورج سالم الجانب المأساوي في القصة والذي يتجلى في ظلم المجتمع للإنسان ،وعجز الأخير عن إيقاف هذا الظلم الذي يؤدي به إلى الموت و«أن المأساة في القصة تنبع أيضاً من شعورنا بالعبث، عبث الحياة الإنسانية وتصرفات الإنسان. فعذاب هذا الموظف البسيط وتقتيره وإدخاره وسعيه الحثيث وراء غاية يسيرة كل اليسر إنما كان عملاً لا مبرر له، لأنه ذهب أدراج الرياح»(٢٧).

هنا يجدر بنا التوقف قليلاً والتساؤل: ـ هل أن غوغول أراد بقصته هذه أن يشعر القارىء بعبثية الحياة الإنسانية؟ نعتقد أن العكس هو الصحيح، خصوصاً إذا عرفنا أن غوغول قد كتب هذه القصة وكان لا يزال وثيق الصلة بالفكر الديمقراطي الثوري الذي يؤكد الثقة بالشعب وبالمستقبل. لقد أراد غوغول لقصته هذه أن تكون مرآة لجانب سلبي من جوانب الحياة الاجتماعية الروسية آنذاك ليدفع القارىء إلى محاربة ذلك الجانب. إن حلم أكاكي أكاكيفيتش بالمعطف ومعاناته الكثيرة من أجله ثم عند الحصول عليه يسرق منه ،. هنا أراد غوغول تصوير الواقع البغيض الذي يجعل تحقيق أبسط أحلام الإنسان الفقير أمراً مستحيلاً، وإن تحقق هذا الحلم فلا بد أن يسلب منه. هذه ليست دعوة لعبثية

---

(٢٦) المصدر السابق، ص ١٤٠.

(٢٧) المصدر السابق، ص ١٤٠.

الحياة، بل دعوة لإسقاط مثل هذا الواقع.

يشير الباحث في نهاية مقاله إلى فكرة التآخي بين البشر التي تخاطب ضمائر كل الناس والتي أخرجت غوغول من اللون المحلي إلى العالمي، ويؤكد تأثير هذه القصة على آثار الأدباء الذين جاءوا بعد غوغول فيقول: «والحق أن قصة المعطف قد فتحت باباً جديداً في الأدب الحديث، فأتيح للناس أن يقرأوا أدباً متأثراً بهذه النزعة، أدباً يعنى بالإنسان وبجل إنسانيته ويقدسها، وتتألف الآثار في القرنين التاسع عشر والعشرين تحمل هذا الطابع الأصيل، وهذه الرسالة الإنسانية العميقة»(٢٨).

يتسم بحث الدكتورة حياة شرارة «مع جوجول في الأرواح الميتة» بالأكاديمية إلى جانب العرض الممتع لدقائق هذه الرواية بشكل علمي موضوعي. تؤكد الباحثة أن المرحلة التاريخية التي كتب فيها غوغول روايته الأرواح الميتة تختلف عن المرحلة التي كتب فيها بوشكين روايته الشعرية «يفغيني أونيغين»، لذلك نجد أن غوغول قد تخطى بوشكين في تصويره للمجتمع الإقطاعي. كتبت الدكتورة حياة شرارة: «تخطى جوجول تصوير بوشكين لمجتمع النبلاء. فبطل بوشكين من النبلاء الثوريين الذي يضيقون ذرعاً بمحيطهم المحدود الآمال والرغبات ولا يتجاوبون مع طراز معيشتهم، وهم يمثلون الاتجاه التقدمي الذي أخذ ينتبه إلى تفاهة وخواء حياة الطبقة الارستقراطية، ولو أنه لم يصل إلى مرحلة التمرد عليها. أما نظرة جوجول لهذا المجتمع فتختلف تماماً عن نظرة بوشكين إليه، ويعود السبب إلى المرحلة التاريخية التي أنتج فيها جوجول والتي أصبح واضحاً فيها انحطاط المجتمع العبودي وتدهوره الخلقي»(٢٩).

---

(٢٨) المصدر السابق، ص ١٤١.

(٢٩) مجلة كلية الآداب (جامعة بغداد)، العدد ١٨ لسنة ١٩٧٤، ص ٣٣.

رغم طابعها السايكولوجي، نعتقد أن رواية «بطل من هذا الزمان» لليرمانتوف تشارك رواية «يفغيني أونيغين» لبوشكين نفس الصفات، وأن بيتشورين عند ليرمانتوف يمثل الاتجاه التقدمي كما يفغيني أونيغين عند بوشكين وكلاهما لمس تفاهة حياة المجتمع الإقطاعي، لكنهما لم يصلا إلى مرحلة التمرد والخروج على مجتمع العبودية والسبب، كما أشارت الدكتورة حياة شرارة، هو اختلاف المرحلة التاريخية، أي سرعة تنامي وتطور الفكر السياسي ـ الاجتماعي، علماً بأن الفارق الزمني بين صدور رواية «يفغيني أونيغين» و«الأرواح الميتة» لم يكن كبيراً، فكيف بالنسبة لـ «بطل من هذا الزمان» التي صدرت بينهما، لكن تطورات المجتمع الروسي آنذاك كانت سريعة جداً وخصوصاً في مجال الفكر وكان الفضل في ذلك يعود إلى مجموعة الأدباء والمفكرين التقدميين وعلى رأسهم الناقد الكبير بيلينسكي.

تشير الدكتورة شرارة مُحقّة، إلى أن غوغول لم يقصد في روايته «الأرواح الميتة» الفلاحين المتوفين الذين يبغي تشيتشيكوف شراء أسمائهم والإثراء عن طريقها بشكل غير مشروع، بل كان يرمي إلى تصوير مجتمع الإقطاع المحتضر بأخلاقياته ومفاهيمه وسلوكيته: «إن الأرواح الميتة ليست بالواقع جماعة من العبيد الموتى الذين يقوم تشيتشيكوف بشرائها، إنما الملاكون أنفسهم الذين يحيون حياة طفيلية ويتميزون بالجهل المطبق والتفكير المحدود والمآرب الضيقة والغباوة والبعد عن الحياة الحية. هؤلاء الطفيليون هم المهيمنون على المجتمع الروسي في سنوات الأربعين أثناء حكم نيقولاي الأول وهم الذين يتحكمون بمصائر الناس ويسودون عليهم...»[٣٠]

تكثر في رواية «الأرواح الميتة» لوحات الطبيعة الروسية العزيزة على نفس غوغول حيث يرسمها بحب لا حدود له ويمزجها بأغاني الفلاحين

---

(٣٠) المصدر السابق، ص ١٤٠.

فتتكون لديه صور تحكي المصير المظلم للفلاح الروسي المستعبد. تذكر الباحثة: «تتميز رواية «الأرواح الميتة» بلون غنائي شجي، فكثيراً ما يستخدم الكاتب المناجاة التي يغني فيها الطبيعة الروسية ويتذكر الأغاني الشعبية الحزينة والأغاني المرحة والمصير البائس للفرد الروسي وجمال البلاد الروسية المترامية الأطراف»(٣١).

ينفرد غوغول بين الأدباء الكلاسيكيين الروس بأسلوبه المتميز الذي يزاوج فيه بين الموضوع المأساوي والشكل الساخر فتنتج لديه المادة الأدبية التي تبعث في النفس الألم في نفس الوقت الذي تدفع فيه إلى الضحك، وقد أطلق النقاد على أسلوب غوغول الفريد هذا «الضحك من خلال الدموع» والذي كان له أثره الكبير على أساليب من جاء بعده من الأدباء وفي مقدمتهم سالتيكوف ـ شيدرين وتشيخوف. تشير الدكتورة حياة شرارة إلى هذه الناحية فتقول: «يمزج أسلوب جوجول الغنائي الفكاهي بين المضحك والمبكي في الواقع الروسي. فتصويره الفكاهي لحياة الملاكين وتصرفاتهم يبعث الضحك في نفس القارىء، ولكن مما يدمي القلب ويبكيه أن هؤلاء الطفيليين هم الذين يتحكمون بالبلاد وأهلها»(٣٢).

تعالج الدكتورة حياة شرارة في نهاية بحثها أسباب التحول الفكري الذي طرأ على غوغول في نهاية حياته فتقول: «رغم أن جوجول كان بعيداً عن الحركات السياسية ولا ينتمي إلى أي منها فقد استهوته فكرة وحدة الشعب الروسي وأخوته من الناحية الأخلاقية، ووجد فيه منطلقاً لأفكاره حول إمكانية بعث الشعب الروسي أخلاقياً لا بواسطة النضال السياسي كما تدعو لذلك الحركات الثورية، بل بالدعوة إلى الأخلاق»(٣٣).

---

(٣١) المصدر السابق، ص ١٤٠.

(٣٢) المصدر السابق، ص ١٤٠.

(٣٣) المصدر السابق، ص ١٤٢.

هنا يجب الإشارة إلى أن الحركة السياسية في أربعينات القرن التاسع عشر في روسيا قد تمخضت عن معسكرين متنافرين ومتناقضين تماماً،ضم الأول منهما كل الرجعيين والمنتفعين من النظام العبودي القيصري وجمع الثاني كل الداعين إلى إلغاء نظام القنانة وإعطاء الفرد الروسي حقه في الحياة الحرة. وكان من أبرز شخصيات المعسكر الثاني الناقد الديمقراطي الكبير بيلينسكي الذي كان له تأثيره الواضح على نتاجات غوغول الأدبية وطبيعي أن ينضم إلى معسكر التقدم إنسان أبدع «المعطف» و«المفتش العام» و«الأرواح الميتة» وغيرها، من النتاجات الإنسانية الرائعة. لذلك يصعب التأكيد على أن غوغول كان بعيداً عن الحركات السياسية، بل كان ضمن معسكر التقدم حتى لحظة تحوله فكرياً في أخريات أيامه. أما مسألة الدعوة إلى الأخلاق وتطهير الذات وروح الأخوة التي نادى بها غوغول في الفترة الأخيرة من حياته فهذه لها أسبابها الخاصة التي تتبلور لدى الفنان بحكم رهافة حسه وتتصدر أفكاره إن لم يكن لديه الوعي الثوري ونفس الردة الفكرية حدثت عند دستويفسكي بعد عودته من المنفى، وذات الرأي حمله تورغينيف، وإلى نفس الفكرة دعا تولستوي. كان هؤلاء الكتاب العباقرة يرون في الثورة تدميراً لكل الحضارة الروسية القائمة آنذاك والتي كانت عزيزة على نفوسهم من ناحية، وكانوا يريدون لشعبهم ووطنهم التحرر والازدهار من ناحية أخرى، لذلك نجدهم يلجأون إلى الحل الوسط وهو تطهير الذات الذي يؤدي، كما كانوا يعتقدون، إلى تطهير المجتمع وتطوره. إن هؤلاء الكتاب بما فيهم غوغول قد اتخذوا الموقف المناهض للثورة نتيجة عدم إدراك ثوري للمرحلة التاريخية التي كان يعيشها الشعب الروسي آنذاك، لكن كل واحد منهم قد عاش حياته ليتغنى بوطنه وشعبه ولم يتبينوا الطريق الصائب للوصول إلى آمالهم فوقعوا في ذلك الطريق المسدود وهو طريق التطهير الروحي.

في كتاب «الأدب الأوروبي ـ تطوره ونشأة مذاهبه» يخصص الدكتور

حسام الخطيب فصلاً عن الأدب الروسي بعنوان «الأدب الروسي حتى آخر القرن الثامن عشر» يتحدث فيه عن بعض أدباء ذلك القرن ومن بينهم غوغول، حيث يقدم صورة موجزة عن حياة الأديب واستعراضاً بسيطاً لبعض مؤلفاته البارزة. وبحكم العجالة والاختصار اللتين تميزان مقالة الدكتور حسام الخطيب، لم يتمكن من توضيح بعض النقاط مثل «كان غوغول مصلحاً لا ثائراً وكان هدفه أن يدفع كل فرد لإصلاح نفسه من الداخل بدلاً من الدعوة إلى قلب النظام القائم. وتحمل مؤلفاته فضحاً لا هوادة فيه للبيروقراطية والحكم الفردي»(٣٤). كان على الباحث أن يوضح للقارىء أن غوغول أصبح مصلحاً في أواخر أيامه فقط، أما في بقية مراحل حياته فكان ملتصقاً بالحركة الديمقراطية الثورية. إن مقولة الدكتور حسام الخطيب نفسها تحمل بعض التناقض إذ كيف تكون مؤلفات غوغول التي حملت «فضحاً لا هوادة فيه للبيروقراطية والحكم الفردي» ثم يصف صاحبها بالإصلاحية. الصحيح أن غوغول قد أدان في جميع مؤلفاته الظلم الإقطاعي ونظام القنانة والتعسف القيصري والتفاوت الطبقي، ولم يتحول إلى الأفكار الإصلاحية إلا في نهاية حياته وفي آخر مؤلف صدر له وهو «مختارات من مراسلات الأصدقاء».

يبدو واضحاً أن الدكتور حسام الخطيب قد جمع مادة الفصل المذكور من المصادر الغربية دون أن يمحصها، لذلك وقع في أخطاء وتناقضات واضحة. كتب الباحث: «إن العوامل السياسية والاجتماعية لم تسمح لروسيا بالإسهام في الثقافة العالمية حتى منتصف القرن التاسع عشر. أما قبل ذلك فقد كانت الآداب الروسية متصلة اتصالاً وثيقاً بالكنيسة المتحالفة مع الإقطاع والأباطرة، وكان الأدب يتألف من

---

(٣٤) د. حسام الخطيب «الأدب الأوروبي ـ تطوره ونشأته ومذاهبه» دمشق ١٩٧٢، ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

مرددات شعبية وحكايات يختلط فيها التاريخ بالأسطورة. . .»[٣٥]. هنا يتجنى الباحث على الحقيقة وهو يردد أقوال النقاد البرجوازيين عن الأدب الروسي، ولو كان على اطلاع بتاريخ الأدب الروسي لعرف أن القرن الثامن عشر قد تمخض عن كاتب أصيل تعرض لنقمة القيصرة كاترين الثانية، لتصويره الواقع بصدق وانتقاده لطبقة الإقطاع بشدة وذلك هو الأديب راديشيف في مؤلفه «رحلة من بيتربورغ إلى موسكو».

إننا نود أن نسأل الدكتور حسام الخطيب، إن كان الأدب الروسي لم يسهم في الثقافة العالمية حتى منتصف القرن التاسع عشر وكان مجرد مرددات شعبية ساذجة وكان مرتبطاً بالكنيسة، إذن أين تضع بوشكين وليرمانتوف وغوغول الذين أبدعوا وماتوا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، عدا غوغول الذي تخطى منتصف القرن بعامين حيث توفي سنة ١٨٥٢؟ وإن كنت مقتنعاً برأيك هذا فلم أفردت لغوغول قسمًا من فصل في كتابك واعتبرت مسرحية «المفتش العام» رائعة إنسانية خالدة حيث تقول: «إن الإضحاك الذي يبلغ حد القهقهة في كثير من المواقف يسير جنباً إلى جنب مع النقد الفاضح لمفاسد البرجوازية الصغيرة ليجعل من هذه الملهاة رائعة إنسانية خالدة»[٣٦]؟ علمًا بأن هذه المسرحية قد ظهرت قبل منتصف القرن التاسع عشر وفي سنة ١٨٣٦ بالذات. . .

في مكان آخر يناقض الباحث كلامه السابق حين يؤكد أن الأدب الروسي قد دخل عصره الذهبي على يد بوشكين حيث يقول: «وما أن أتت سنة ١٨٢٠ حتى بدأ الأدب الروسي يدخل عصره الذهبي على يد بوشكين وقد استمرت هذه الفترة الزاهية حتى وفاة تورغينيف سنة ١٨٨٣. وقد سيطر على العقدين الأوليين من هذه الفترة الشاعران الرومانتيان العظيمان بوشكين وليرمانتوف. ثم ظهرت سنة ١٨٤٢ قصة

---

(٣٥) المصدر السابق، ص ٢١٤.

(٣٦) المصدر السابق، ص ٢١٧.

«أرواح ميتة» لغوغول معلنة ابتداء فترة الواقعية في القصة، وتعاقب على المسرح الأدبي بعد ذلك كتاب عباقرة مثل تورغينيف ودوستويفسكي وتولستوي نفحوا روسيا والعالم بأدب مبدع لم يعرف له مثيل من قبل. . .»[٣٧].

لدينا بعض الملاحظات يجب طرحها وهي أن تحديد فترة ازدهار الأدب الروسي بوفاة تورغينيف سنة ١٨٨٣ خطأ، وذلك لأن هناك تولستوي وآثاره الرائعة ومنها مثلاً روايته الخالدة «البعث» التي كتبها بعد ذلك التاريخ، وهناك أيضاً تشيخوف بأعماله الخالدة التي كتبها في أواخر القرن التاسع عشر من قصص قصيرة ومسرحيات ولا يمكن أن نصف بوشكين وليرمانتوف بالرومانطيقية، إذ إن بوشكين هو مؤسس الواقعية في الأدب الروسي وليرمانتوف مكمل رسالته ويكفينا أن نقرأ روايتهما المترجمتين إلى العربية «ابنة الضابط» و«بطل من هذا الزمان» لنتبين أصالة واقعيتهما. وأخيراً فإن ظهور «الأرواح الميتة» لم يعلن ابتداء الواقعية في القصة، إذ إن الواقعية كانت موجودة قبل ظهورها ولكن هذه الرواية أعلنت بداية الواقعية الانتقادية التي أوجدها غوغول والتي كانت تطويراً لواقعية بوشكين.

وبالرغم مما في مقالة الدكتور حسام الخطيب من هفوات جاءت نتيجة عدم تخصصه في هذا الموضوع واستناده إلى المصادر الغربية غير الدقيقة، لكنه يتحدث عن غوغول بإعجاب وتقدير.

من المراجع العربية التي تتناول الأدب الأجنبي كتاب الناقد المصري الأستاذ فؤاد دوارة «هكذا كتبوا» والذي يتطرق فيه إلى آداب شعوب عدة ويتناول عدداً من أبرز أعلام الأدب العالمي. ومما يلفت النظر أن الأستاذ فؤاد دوارة يفتتح كتابه هذا بفصل من «الأدب

---

(٣٧) المصدر السابق، ص ٢١٥.

الروسي»، وأول أديب يتناوله بالبحث هو «جوجول.. بداية الأدب الروسي العظيم». وهذا إن دل على شيء إنما يدل على الأهمية البارزة للأدب الروسي ومكانته المتميزة بالنسبة للنقد العربي من ناحية ومدى قربه من نفسية القارىء العربي من ناحية أخرى.

يتساءل الكاتب في بداية بحثه «ترى ما الذي يجذب هذه الجموع من قراء العربية إلى كتابات «تشيخوف» و«جوركي» و«تولستوي» وغيرهم من الأدباء الروس؟»[٣٨]. ويجيب على تساؤله قائلا: «من الواضح أن معظم ما ترجم إلى العربية من أدب القصة الروسية كتبه مؤلفوه قبل ثورة عام ١٩١٧، وعكسوا فيه صورا صادقة لمجتمع إقطاعي مريض بشتى العلل، يعاني من الحكم الفردي المستبد وما يخلقه من أجواء فاسدة... وهي نفس الصور التي عاشت فيها أقطار الشرق العربي سنوات طويلة، وما زالت تعاني من اثارها حتى اليوم هذا من ناحية الموضوعات والأفكار التي عالجها هذا الأدب، أما من ناحية الشكل والأسلوب وطريقة الأداء فقد تميز الأدب الروسي بالبساطة والوضوح، وبهذه الروح الحائرة، الدائمة البحث والتساؤل، الساخطة دائما بصورة تثير الألم والإشفاق عند البعض، وتثير السخرية لدى البعض الاخر...»[٣٩].

إن الأستاذ فؤاد دوارة محق فيما يطرحه من أسباب إعجاب القارىء العربي بالأدب الروسي، إذ ان تشابه ظروف القسر والظلم والتأخر التي عاشها الشعب العربي حتى منتصف القرن الحالي، كبيرة الشبه بما عاشه الشعب الروسي في ظل السلطة القيصرية. وهذا ما يجعل موضوعات الأدب الروسي مفهومة بالنسبة للقارىء العربي - هذا من حيث المضمون - أما من ناحية الشكل فإن بساطة الطرح وسهولة التناول

---

(٣٨) فؤاد دوارة، «هكذا كتبوا»، القاهرة ١٩٦٦، ص ٩.

(٣٩) المصدر السابق، ص ٩ - ١٠.

وجمالية الفن، مكللة بالروح الإنسانية العميقة، هي أبرز سمات الأدباء الروس وهذا من جانبيه ـ الشكل والمضمون ـ قد جعل نتاجات هؤلاء الأدباء قريبة جداً إلى قلب القارىء العربي.

يشير الباحث إلى أن خصائص الأدب الروسي هذه ترتبط باسم بوشكين وغوغول وإليهما يعود الفضل في ترسيخ هاتين الناحيتين في الأدب الروسي حيث يقول: «يجمع كبار نقاد الأدب الروسي ومؤرخيه، على أن كل هذه الخصائص يمكن ردها إلى أديبين كبيرين من طلائع الأدباء الروسيين هما «بوشكين» و«غوغول» بالرغم من التناقض البين بينهما»(٤٠).

إن الباحث مصيب فيما أشار إليه، حيث إن بوشكين هو واضع أسس اللغة الروسية الأدبية الحديثة ومبدع الاتجاه الواقعي في الأدب الروسي، كذلك غوغول الذي سار بالواقعية خطوة إلى الأمام وظهرت على يده الواقعية الانتقادية، لهذا فإن دور بوشكين وغوغول في الأدب الروسي كبير جداً وتأثيرهما على الأدباء الروس عظيم جداً.

يتحدث فؤاد دوارة بإعجاب عن حياة غوغول ويتناول بالسرد معظم نتاجاته، وليس في البحث ما يؤخذ عليه إلا نقطة واحدة حيث يشير إلى القيصر نيكولاي الأول بعد أن شاهد مسرحية «المفتش العام» أعجب بها جداً بل لقد بلغ من إعجاب القيصر بها أن أمر بصرف مكافأة مالية لمؤلفها، على ألا يحاط علمًا بمصدرها لئلا يخفف من حدة نقده للإدارة الحكومية...»(٤١). في حين أن المصادر الموثوقة تؤكد أن القيصر والطبقة الإقطاعية قد حقدت على غوغول بسبب مسرحيته التي فضحت جميع جوانب ذلك النظام المهترىء وتلك الطبقة الفاسدة. ثم إن الموضوعية والديمقراطية التي أشار إليهما الباحث في كلمته أعلاه بعيدة

---

(٤٠) المصدر السابق، ص ١٠.

(٤١) المصدر السابق، ص ١٦.

الصارخة لفضح نفاق وأنانية العلاقات الاجتماعية السائدة آنـذاك في المجتمع الإقطاعي القيصري»(٤٣).

يركز الفصل الثالث من الكتاب على شرح وتحليل رواية «الأرواح الميتة»، فيؤكد المؤلف: «عندما يصور غوغول عالم الإقطاعيين القيصريين فإنه يجعل القارىء يشعر وكأن وراء هـذا العالم عـالماً آخـر هو عـالم الفلاحين الروس الذين يتحدث عنهم غوغول بمعنوية عالية وإعجاب كبير بحبهم وتطلعهم إلى التحرر من ربقته»(٤٤).

يستعرض فصل «غوغول والمسرح» علاقة الكاتب الكبير بهذا الفن منذ عهد التلمذة وحتى بروزه كأديب مرموق، مركـزاً على مسـرحيته الخالدة «المفتش العام» مع الإشارة إلى ما كابده غوغول نتيجة ظهور مسرحيته تلك. كذلك يشير المؤلف إلى فضل غوغول على من أعقبه من الكتاب في مجال المسرح بدءاً بأستروفسكي وانتهاء بتشيخوف.

أما عن تأثير غوغول على مجمل الأدب الروسي فيتحدث فصل «غوغول والأدب الروسي» عن الجوانب التي استقاها الأدباء الروس من معين هذا الكاتب، فيقول: «إن تقاليد غوغول في الأدب الروسي هي التقاليد الوطنية المكرسة لخدمة الشعب، تقاليد النضال ضد قوى الظلام وضد المظاهر السلبية في الحيـاة. لهذا نجـد أن جميع الأدبـاء الروس التقدميين قد ساروا على تقاليده وارتبطوا بفنه. . .»(٤٥).

يتناول الباحث في الفصـل الأخير من كتـابه «غـوغول والأدب العالمي» مكانـة غوغـول العالميـة وتثمين الأدبـاء من مختلف الجنسيات لأعماله الأدبية ومن بينهم النقاد العرب.

---

(٤٣) المصدر السابق، ص ٥١.

(٤٤) د. محمد يونس: «غوغول»، «المؤسسة العربية للدراسات والنشر»، بيروت ١٩٧٦، ص ٦٣.

(٤٥) المصدر السابق، ص ٩١.

كل البعد عن آل رومانوف من قياصرة روسيا وغريبة عن مفاهيم الطبقة الحاكمة آنذاك. وكانت تهديدات الإقطاعيين لغوغول بعد عرض مسرحيته ولهجة النقاد الرجعيين القاسية على أثر نجاح تلك المسرحية هي السبب الذي دفع غوغول إلى مغادرة البلاد ولم يرجع إلى روسيا حتى انتهت تلك الضجة التي أثارتها مسرحية «المفتش العام». ويذكر الباحث أيضاً أن غوغول قد ترك الجامعة في التاسعة عشرة من عمره وسعى إلى العاصمة وفي نيته أن يشتغل في المحاماة. والمعروف أن غوغول لم يدخل الجامعة بل درس في مدرسة العلوم العالية وتخرج فيها سنة ١٨٢٨ ولم يمارس المحاماة(٤٢).

أخيراً نود أن نشير إلى أن الحظ قد حالف كاتب هذه السطور في نشر كتيب صغير عن غوغول وهو أول كتاب مستقل عن حياة ونتاجات هذا الأديب باللغة العربية، صادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت. يضم البحث ستة فصول، هي غوغول وعصره، غوغول والقصة، غوغول والرواية، غوغول والمسرح، غوغول والأدب الروسي، غوغول والأدب العالمي.

يتناول الفصل الأول من الكتاب حياة غوغول بشيء من التفصيل مع الإشارة إلى الملابسات التي عاشها الكاتب آنذاك وعلاقاته ببقية أعلام وشخصيات تلك الفترة. يتتبع الفصل الثاني من الكتاب قصص غوغول حسب تاريخ كتابتها مع عرض موجز لها. يخلص الكاتب في نهاية الفصل إلى: «إن التناقض الصارخ بين المثل الإنسانية والواقع العبودي الإقطاعي هو الذي حدد اتجاه وطبيعة قصص غوغول، هيكلها الفني، الصراعات الدائرة فيها. فقد رسم الوجه الكاذب واللاإنساني للمجتمع القائم على اضطهاد الإنسان لأخيه الإنسان. ويستخدم غوغول السخرية

---

(٤٢) انظر: د. محمد يونس «غوغول»، «المؤسسة العربية للدراسات والنشر»، بيروت ١٩٧٦، ص ٨.

رغم أن الكتاب يتسم بطابع الاختصار وهذا ما تتطلبه طبيعة سلسلة أعلام الفكر العالمي الصادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت، لكننا نعتقد أن الكتاب يتميز بالتركيز، وأنه قد قدم إلى القارىء العربي بعض المعلومات عن هذا الأديب الكبير.

يفتتح الباحث عبد المنعم صبحي كتابه «من الدون الهادىء إلى جائزة نوبل» بفصل عنوانه «إنسانية الأدب الروسي»، تحدث فيه عن مميزات الأدب الروسي وسماته الأساسية مستعرضاً أدباء القرن التاسع عشر فيقول عن غوغول: «قام فن جوجول (١٨٠٩ - ١٨٥٢) على أساس السخرية من العيوب الاجتماعية في عصره .. ولم تكن سخريته الترفق بصناع العيوب، بل كانت سخرية تبرز العيوب بطريقة عنيفة، كأنها سخرية شيطان يلهو بزلة فريسة من فرائس غوائيته»(٤٦).

يعتبر الباحث العربي رواية غوغول «الأرواح الميتة» واحدة من أهم الأعمال القصصية العالمية التي كان لها أثرها في توجيه الفن القصصي ولها أثرها في تحديد رسالة هذا الفن.

ويختتم عبد المنعم صبحي حديثه عن غوغول وأعماله الأدبية قائلاً: «لا شك أن «النفوس الميتة» صرخة واقعية عميقة، ربما كانت أكثر حدة ومرارة من «المعطف». وإلى جانب روعة هذين العملين كعملين من أعظم الأعمال الكلاسيكية، فإن لهما أثرهما العريض الواضح على الأدب. فقد دفع هذا العملاق الكتّاب الروس إلى أن يثوروا ضد كل القيود الكلاسيكية وضد انحرافات الرومانسية. وأن يبدأوا من الواقع ويسخروا منه»(٤٧).

---

(٤٦) عبد المنعم صبحي، «من الدون الهادىء إلى جائزة نوبل»، القاهرة ١٩٦٧، ص ١٩.

(٤٧) المصدر السابق، ص ٢١.

تتضح لنا مما سبق أهمية غوغول ومكانته المؤثرة في الأدب العالمي، حيث تتصارع المدارس النقدية على اختلاف اتجاهاتها لتفسير آراء ونتاجات غوغول لصالحها. وانعكس هذا الصراع في النقد العربي، لكن بشكل جعل حتى النقاد الرجعيين والمحافظين ينظرون إليه باحترام وحب كبيرين.

المصادر

١ ـ ن. ف. غوغول، مجموعة المؤلفات في ستة مجلدات، موسكو ١٩٥٩.

٢ ـ ف. غ. بيلينسكي، مجموعة المؤلفات في ثلاثة مجلدات، موسكو ١٩٤٨.

٣ ـ م. ب. خرابتشينكو، «أدب غوغول»، الطبعة الثالثة، موسكو ١٩٥٩.

٤ ـ ن. ستيانوف، «غوغول»، سلسلة حياة العظماء، موسكو ١٩٦١.

٥ ـ أ. ن. سوكولوف، «تاريخ الأدب الروسي في القرن التاسع عشر (النصف الأول)»، الطبعة الثالثة، موسكو ١٩٧٠.